

علامات مولد

عالم؛

كان عالماً متداعياً قد شارف النهاية . . خلاصة ما يقال فيه إنه عالم فقد العقيدة كما فقد النظام .

أى أنه فقد أسباب الطمأنينة فى الباطن والظاهر . . طمأنينة الباطن التى تنشأ من الركون إلى قوة فى الغيب، تبسط العدل، وتحمى الضعف، وتجزى الظلم، وتختار لأصلح الأكمل من جميع الأمور . .

وطمأنينة الظاهر التى تنشأ من الركون إلى دولة تقضى بالشريعة، وتفصل بين البغاة والأبرياء، وتحرس الطريق، وتخيف العائثين بالفساد .

ببزنطة قد خرجت من الدين إلى الجدل العقيم الذى أصبح بعد ذلك علماً عليها، وتضاءت سطوتها فى البر والبحر حتى طمع فيها من كان يحتمى بجوارها . .

وفارس قد سخر فيها المجوس . . وكمنت عرشها كوامن الغيلة، وبواعث الفتن، ونوازع الشهوات .

والحبشة ضائعة بين الأوثان المستعارة من الحضارة تارة ومن الهمجي تارة، وبين التوحيد الذى هو ضرب من عبادة الأوثان . . ثم هى بعد هذا التشويه فى الدين، ليست بذات رسالة فى الدنيا ولا بذات طور من أطوار التاريخ . . فليس لها عمل باق فى سجل الأعمال الباقيات .

عالم يتطلع إلى حال غير حاله . . عالم يتهياً للتبديل أو للهدم ثم للبناء .

أمة؛

وبين هذه الدول المتداعيات، أمة ليست بذات ولكنها تتأهب لإقامة

دولة . هي أمة العرب وقد تيقظت لوجودها وشعرت بمكانتها، كما شعرت بالخطر عليها وبمواضع النقص منها .
في أيديها تجارة العالمين كلها .

فإذا سارت القوافل من خليج فارس إلى بحر الروم، فهي تسير في البادية بين حراس من العرب ولا سلطان عليهم للدول المتداعية . . أو هم قد شعروا بذلك السلطان بنا في إبان الصولة الرومانية والصولة الفارسية، ثم علموا أنهم مالكون لزماتهم يرضون فتتصل الأرزاق بين المشرق والمغرب وبين المغرب والمشرق، ويغضبون فتبور التجارة وينضب المورد وتكسد الأسواق .

وإذا سارت القوافل من اليمن إلى الشام أو من بحر القلزم إلى بحر الروم، فهي في حيرة الأعراب ومن كلتا الطريقين .

أمة تيقظت لوجودها، وعرفت شأنها بين من يحدقون بصحرائها . . ثم رأت هؤلاء المحيطين بها يجورون عليها، ويريدون إخضاعها وابتلاعها . .

فهرقل الرومي يرسل إلى مكة من يحكمها، وأبرهة الحبشي يزحف إلى مكة بمن يهدم كعبتها ويستبدل بها كعبة غيرها، وفارس تطنى على شرق البلاد وعلى جنوبها . .

خطر من خارجها، يزيد الأمة يقظة وانتباها لوجودها .

وخطر من داخلها، يدفع بها إلى الزوال أو إلى استكمال النقص المستشري في حياتها . .

مدينة واحدة تجتمع فيها ثروة الجزيرة، وعصبة واحدة من سادة القوم تجتمع في أيديها ثروة المدينة .

حالة لا استقرار فيها . .

فمن هنا الترف، والطمع، والخمر، والقمار، والمتعة، وتسخير الأقوياء للضعفاء . .

ومن هنا الفاقة، والحسرة، والشك فى صلاح الأمور..

ولكنه شك ييحث ويضطرب، وليس بالشك الذى يستجم ويستكين فحيثما اجتمع أناس من أولى الرأى يذكرون العقيدة وطمأنينة الضمير، فهناك هاتف بينهم بسوء ما هم عليه. اجتمع أناس بنخلة لإحياء عيد العزى فقال رجل منهم لأخوانه: "والله ما قومكم على شىء وإنهم لفى ضلال.. فما حجر نظيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع، ومن فوقه يجرى دم النحور. يا قوم التمسوا لكم دينا غير هذا الدين الذى أنتم عليه". ثم تفرقوا، فمنهم من تنصر، ومنهم من اعتزل الأوثان، ومنهم من انتظر حتى سمع دعوة الإسلام فلباها.. وكان الذى تنصر وسمع دعوة الإسلام ورقة بن نوفل الذى كتب له أن يتلقى بشارة النبى العربى عند زهوره ويلقى إليه بالبشارة.

هؤلاء شكوا وبحثوا عن العقيدة وطمأنينة الضمير..

وغيرهم شكوا وبحثوا عن وازع من الضمير، ووازع من السلطان فاجتمعت بنو هاشم وزهرة وتيم يتعاهدون باسم الله المتقم ليكونن مع المظلون حتى يؤدى إليه حقه.. وذلك حلف الفضول الذى شهدته النبى العربى فى شبابه وقال فيه. "ما أحب أن يكون لى بحلف حضرته فى دار ابن جدعان حمر لنعم".

حالة لا تستقر، ولا تزال فى طلب الاستقرار.

وأمة يقظى!..

وخطر محقق بها مما حولها، ومما هو فى دخالها وأحشائها.. حالة تنذر بالزوال، وقلما تزول أمة يقظى فى أوان انتباهاها. فتلك إذن حالة للتبديل والتجديد.

قبيلة:

وقبيلة فى تلك الأمة، فى تلك المدينة . . لها شعبتان :

إحدهما من أصحاب الترف والطمع واستبقاء ما هو قائم كما كان قائما على هواها . .

والأخرى من أصحاب التقوى والسماحة والتوسط بين مقام القوى الذى يجور ويطغى ويستبقى أداة الجور والظغيان، ومقام الضعيف الذى يحتمل الأذى ويصبر على الكريهة ولا يملك مع السيد الأمر إلا أن يذعن له ويأكل من فضلات يديه .

بيت:

وبيت من تلك الشعبة الوسطى له كرم النسب العريق وليس له لؤم الثروة الجامحة والكبرياء الجائحة، والقسوة على من دونه من المحرومين .

ذلك هو بيت عبد المطلب من صميم قريش ومن ذؤابتها العليا، وإن لم يكن معدودا من أثرياء القبيلة القرشية فى ذلك الأوان . .

ورأس هذا البيت - عبد المطلب - رجل قوى الخلق قوى الإيمان فيما أمن به، حكيم مع قوة طبعه وشدة إيمانه، خليق أن ينجب العقب الذى يبشر بدعوة وينضح عن دين .

ندر لئن عاش له عشرة بنين لينحرن أحدهم عند الكعبة . . ثم أحله قومه وأحلتها العرافة من نذره، فأبى أن يتحلل حتى يستوثق من رضا الرب ورضا ضميره

سألتهم العرافة: " كم الدية فيكم؟ " .

قالوا: " عشر من الإبل " .

قالت: " فتقربوا إذا بعشر من الإبل واضربوا على الفتى وعليها بالقداح.. فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى بركم" فما زالوا يزيدون حتى بلغت الإبل مائة وخرجت القداح عليها فهتفت قريش بعبد المطلب: "لقد رضى ربك.. فأطلق فتاك". وكان خليقا بمن يريد أن يتحلل ويتعلل أن يقبل ولا حرج عليه، ولكن عبد المطلب لم يكن من المتحللين المتعللين، فأبى إلا أن يضرب عليها القداح ثلاث مرات، ثم نحرت الإبل للجياع من الأناسى والسباع.

وجاء القائد الحبشى يهدم الكعبة ويسطو على الإبل والشاء. فلما سأله عبد المطلب أ، يرد إليه إبله، قال له مقال السياسى المحرج المداور بالكلام "أراك تسأل عن إبلك ولا تسأل عن الكعبة".

فأجابه عبد المطلب جواب حكيم المؤمن: "أما الإبل فأنا ربها، وأما البيت فله رب يحميه!".

فكان إيمانه كفتًا لدهاء السياسة، ولم يكن إيمان الجز والتواكل والاستسلام..

ومن كان له هذا الخلق، وهذا الضمير، وهذا الإيمان، وهذه الرئاسة، فليس من عجب أن ينجب نبيا فى زمان يستدعى الأنبياء، ومكان مهيب لهم دون كل مكان.. بل العجب أن يكون الأمر غير ما كان.

أب:

وإذا كان عبد المطلب جدا صالحا لنبى كريم، فابنه عبد الله نعم الأب لذلك النبى الكريم.

لكأنما كان بئسمة من عالم الغيب، أرسلت إلى هذه الدنيا لتعقب فيها نبيا وهى لا تراه..، ثم تعود.

كان إنسان من طينة الشهداء، يتجه إلى القلب الإنساني بكل ما فيه من حب وحنو ورحمة. فهو الفتى الذى اسمه عبد الله والذى اختير للفداء، فجاشت له شفقة قومه حتى تركه لهم القدر إلى حين. وهو الفتى الذى تحدثت الفتيات فى الخدور بوسامته وحيائه، وودت مئات منهن لو نعمن منه بنعمة الزواج وهو الفتى الذى أقام مع عروسه ثلاثة أيام، ثم سافر ليتجر فإذا هى السفرة التى لا يؤوب منها الذاهبون وهو الفتى الذى مات هو غريب، ولد له نسله الكريم وهو دفين.

وهكذا تتمثل البصائر الخاشعة أباء الأنبياء والسلالة التى تصل بين الآخرة والدنيا وبين عالم البقاء وعالم الفناء..

رجل؛

عالم يتطلع إلى نبي.. وأمة تتطلع إلى نبي، ومدينة تتطلع إلى نبي، وقبيلة وبيت وأبوان أصلح ما يكونون لإنجاب ذلك النبي.

ثم ها هو ذا رجل لا يشركه آخر فى صفاته ومقدماته، ولا يدانيه رجل آخر فى مناقبه الفضلى التى هيأته لتلك الرسالة الروحية المأمولة فى المدينة.. وفى الجزيرة، وفى العالم بأسره.

نبيل عريق النسب وليس بالوضيع الخامل، فيصغر قدره فى أمة الأنساب والأحساب..

فقير.. وليس بالغنى المترف فيطغيه بأس النبلاء والأغنياء، ويغلق قلبه ما يغلق القلوب من جشع القوة واليسار.

يتيم بين رحماء.. فليس هو بالمدلل الذى يقتل فيه التمدليل ملكة الجد والإرادة والاستقلال، وليس هو بالمهجور المنبوذ الذى تقتل فيه القسوة روح الأمل وعزة النفس وسليقة الطموح، وفضيلة العطف على الآخرين.

خبير بكل ما يختبره العرب من ضروب العيش فى البادية والحاضرة
تربى فى الصحراء وألف المدينة، ورعى القطعان واشتغل بالتجارة وشهد
الحروب والأحلاف واقترب من السراة ولم يتعد من الفقراء.

فهو خلاصة الكفاية العربية فى خير ما تكون عليه الكفاية العربية.

وهو على صلة بالدنيا التى أحاطت بقومه.. فلا هو يجهلها فيغفل
عنها، ولا يغامسها كل المغامسة فيغرق فى لجتها.

أصلح رجل من أصلح بيت فى أصلح زمان لرسالة النجاة المرقوبة،
على غير علم من الدنيا التى ترقبها..

ذلك محمد بن عبد الله عليه السلام..

قد ظهر والمدينة مهيأة لظهوره لأنها محتاجة إليه، والجزيرة مهيأة لظهوره
لأنها محتاجة إليه، والدنيا مهيأة لأنه محتاجة إليه، وماذا عن علامات الرسالة
أصدق من هذه العلامة؟.. وماذا من تدبير المقادير أصدق من هذا التدبير؟..
وماذا من أساطير المخترعين للأساطير أعجب من هذا الواقع ومن هذا
التوفيق؟.. وعلامات الرسالة الصادقة هى عقيدة تحتاج إليها الأمة، وهى
أسباب تمهد لظهورها، وهى رجل يضطلع بأمانتها فى أوانها.

فإذا تجمعت هذه العلامات فماذا يلجئنا إلى علامة غيرها؟.. وإذا تعذر
عليها أن تجتمع فأى علامة غيرها تنوب عنها أو تعوض ما نقص منها؟..

خلق محمد بن عبد الله ليكون رسولا مبشراً بدين، وإلا فلأى شىء
خلق.. ولأى عمل من أعمال هذه الحياة ترشحه كل هاتيك المقدمات
والتوفيقات، وكل هاتيك المناقب والصفات؟

لو اشتغل بالتجارة طوال حياته كما اشتغل بها فترة من الزمن، لكان
تاجراً أميناً ناجحاً موثقاً به فى سوق التجار والشراة.. ولكن التجارة كانت

تشغل بعض صفاته . قم تظل صفته العليا معطلة لا حاجة إليها في هذا العمل مهما يتسع له المجال .

ولو اشتغل زعيماً بين قومه لصلح للزعامة، ولكن الزعامة لا تستوفى كل ما فيه من قدرة واستعداد .

فالذى أعده له زمانه وأعدته له فطرته هو الرسالة العالمية لا سواها، وما من أحد قد أعد في هذه الدنيا لرسالة دينية إن لم يكن محمد قد أعد لها أكمل إعداد . .

بشائر الرسالة:

والمؤرخون يجهدون أقلامهم غاية الجهد في استقصاء بشائر الرسالة المحمدية . . يسردون ما أكده الرواة منها ولم يؤكدوه، وما قبله الثقات منها وما لم يقبلوه، وما أيدته الحوادث أو ناقضته، وما وافقته العلوم الحديثة أو عارضته، ويتفقون في الرأي والهوى بين تفسير الإيمان وتفسير العيان وتفسير المعرفة وتفسير الجهالة، فهل يستطيعون أن يختلفوا لحظة واحدة في آثار تلك البشائر التي سبقت الميلاد أو صاحبت الميلاد حين ظهرت الدعوة واستفاض أمر الإسلام .

لا موضع هنا لاختلاف . .

فما من بشارة من تلك البشائر كان لها أثر فى إقناع أحد بالرسالة يوم صدع النبي بالرسالة، أو كان ثبوت الإسلام توفقاً عليها .

لأن الذين شهدوا العلامات المزعومة يوم الميلاد، لم يعرفوا يومئذ مغزاها ومؤادها، ولا عرفوا أنها علامة على شىء أو على رسالة ستأتى بعد أربعين سنة . .

ولأن الذين سمعوا بالدعوة وأصاخوا إلى الرسالة بعد البشائر بأربعين سنة، لم يشهدوا بشارة واحدة منها ولم يحتاجوا إلى شهودها ليؤمنوا بصدق ما سمعوه واحتاجوا إليه .

وقد ولد مع النبي عليه السلام أطفال كثيرون في مشارق الأرض ومغاربها، فإذا جاز للمصدق أن ينسبها إلى مولده جاز للمكابر أن ينسبها إلى مولد غيره . ولم تفصل الحوادث بالحق بين المصدقين والمكابرين إلا بعد عشرات السنين . . يوم تأتي الدعوة بالآيات والبراهين غنية عن شهادة الشاهدين وإنكار المنكرين .

أما العلاقة التي لا التباس فيها ولا سبيل إلى إنكارها، فهي علامة الكون وعلامة التاريخ .

قالت حوادث الكون: لقد كانت الدنيا في حاجة إلى رسالة . .

وقالت حقائق التاريخ: لقد كان محمد هو صاحب تلك الرسالة . .

ولا كلمة لقائل بعد علامة الكون وعلامة التاريخ . .
